

الرواية النشأة والتطور

1 - مفهوم الرواية:

الرواية من فعل " روى " حدثا أو خبرا أو حكاية وقد ورد في لسان العرب لابن منظور: رويت القوم أرويهما إذا استقيت لهم ... ويقال من أين رؤيتكم؟ أي من أين تروون الماء؟ وفي حديث عائشة رضي الله عنها ترووا شعر حجية ابن المضرب، فإنه يعين على البر... وقال ابن الأثير: يروي الإنسان في نفسه من القول والفعل؛ أي يفكر(1).

والإرتواء : كما يقول الناقد عبد الملك مرتاض: " يقع من مادتين اثنتين نافعتين تكون حاجة الجسم والروح معا إليهما شديدة ، وإنما لاحظ العربي الأول العلاقة بين الماء والشعر ، لأن صحراءه كان أعز شيء فيها هو الماء ثم الشعر وواضح كما يذهب عبد الملك مرتاض أن أصل معنى (الرواية) في العربية، إنما هو الاستظهار " (2) وعليه فالرواية تعني التفكير في الأمر ، وتعني نقل الماء، أو نقل النص على الناقل نفسه وتدل أيضا على الخير(3)، ويعكس هذا التعداد الدلالي أصالة هذا المصطلح وغناه وتجذره في الثقافة العربية، التي يشيع في نثرها القص والحكي.

أما اصطلاحا، فإن تعريف الرواية يرتهن بطبيعة بنيتها الداخلية المميزة لها عن نظام القصة ، وكيفية تقديمه بغية الإيهام بالواقع وبطبيعة تطورها التاريخي.

يرى فاليت (Valette) أن تعريف الرواية لا يخرج عن نظريتين:

- نظرية تعارض الرواية بالأجناس الأدبية القريبة منها كالقصة القصيرة والحكاية والسيرة الذاتية .. والمسرح وغيرها.... وأخرى تنزع إلى تقويمها من خلال علاقتها بالأسطورة والملحمة إذ " الرواية شكل ملحمة متحول استقل شيئا فشيئا عن الأصل، وامتلك بالتالي قوانينه الخاصة " (4)

لكن، وإن كان فاليت يقر بجدارة النظرة السابقة للرواية" الرواية ملحمة برجوازية"، فإنه لا يركن إليها ويسعى جاهدا ل طرح رؤية تحليلية دلالية أسلوبية، تتناول الرواية.

ويعرفها الناقد ديان فاير (DIAN FAIRE) بقوله: الرواية هي قصة حول أشخاص معينين، فالكاتب الروائي يخلق شخصا خياليا ثم يدخلهم في مواقف درامية يختارها ما هو غرضه" (5)

من الواضح في هذا التعريف، أنه انتهى بسؤال مفتوح، يعبر عن عدم تحكم النقاد وكذلك القراء فيما يخطط له الروائي في عمله.

والرواية عند باختين (M.BAKTHINE) هي: النوع الأدبي الذي لا يزال في صيرورة، وما يزال غير مكتمل حين يذهب إلى القول: لقد تم نشوء النوع الروائي، وانطلاقه في أوج الزمن التاريخي، لكن بنية هذا النوع الأدبي لا تزال بحاجة إلى زمن طويل لتستقر بشكل نهائي، ولا نستطيع حاليا التكهن بجميع إمكانيات تشكله (6)، فهي جنس أدبي لا يكتمل ومليء بإمكانيات التطور، والتحول، يواجه أجناسا أخرى سابقة عليه أصابها التكلس وانغلقت على ذاتها، فالرواية كما يرى باختين: جنس ديناميكي ومدعش في نقده الذاتي المستمر، فهي جنس في صيرورة يسير في طليعة التطور الأدبي كله في الأزمنة الحديثة (7)، إنها كما يقول روجر آلان: " نمط أدبي دائم التحول والتبدل، يتسم بالقلق بحيث لا يستقر على حال" (8)، فعلاقتها بالواقع جد وطيدة، ومميزة وهذا ما جعل إيان واط يقول: " إن افتقار الرواية للأعراف الشكلية هو الثمن الذي يجب أن تدفعه على ما يبدو لقاء واقعيته". (9)

وتذهب الناقدة آمنة يوسف إلى أن الرواية " فن نثري تخيلي طويل نسبيا بالقياس إلى فن القصة القصيرة، وهي فن بسبب طوله، يعكس عالما من الأحداث والعلاقات الواسعة والمغامرات المثيرة والغامضة أيضا، في الرواية تكمن ثقافات إنسانية وأدبية مختلفة، وذلك لأن الرواية تسمح بأن تدخل إلى كياناتها جميع أنواع الأجناس التعبيرية، سواء كانت أدبية كالقصص والأشعار القصائد المقاطع الكوميديّة أو خارج أدبية كالدراسات عن السلوكيات، النصوص البلاغية والعلمية وغيرها" (10).

والرواية، كما يرى ويليك الابنة الكبرى للملحمة، ولكن " وفي أرفع أشكالها" (11) إذ إنها تدور حول مفهوم الحياة الواسع والشمولي؛ أي كلية الحياة، ونظرا لارتباطها بظهور الطبقة البرجوازية، وبتطور المجتمع البرجوازي في أوروبا، يعدّ لوكاتش الرواية جنسا منحدرًا من الملحمة، عندما يعرفها بأنها ملحمة بورجوازية. و بالنسبة له تمثل بنية الشكل الروائي القطيعة بين الذات والموضوع، وبين الأنا والعالم في الطابع الإشكالي للبطل وفي الطابع المنحط للبحث عن القيم الأصيلة. فإذا كانت الملحمة تصور الوحدة بين الفرد والعالم، فالرواية - على خلاف ذلك تتشخص التعارض النهائي بين الإنسان والعالم، بين الفرد والمجتمع. لذلك يجسد الشكل الروائي بنية جدلية تقوم على التعارض والتناقض، ولا شيء فيها يتصف بالثبات (12)

وبالرغم من هذه التحديدات والمقاربات، وغيرها التي مست زوايا مختلفة من الرواية ظلت هذه الأخيرة مستعصية على القبض، تعيد النظر في أشكالها ومضامينها الدائمة التطور، وقد رد الناقد حسن بحراوي هذه الصعوبة التي تواجه النقاد إلى سببين اثنين هما (13)

1- غياب القوانين الضابطة لعملية الصياغة الروائية.

2- قابلية الرواية لاحتواء عناصر فنية بعيدة في مجالها

2 - مميزات الرواية عن الأجناس الأخرى:

رغم التجاذب الكائن بين الرواية وبقية الأجناس الأخرى، إلا أنه يمكن الوقوف على الميزات الآتية:

-التوسع وإنفاق ما يلزمها من الوقت في لجوئها إلى طرق ملتوية، أو عودتها إلى الوراء.

-الشمولية ، إذ إن الفعل الذي يمارسه الروائي يشمل الحياة بقطاعاتها كافة

-تستحوذ الرواية على خصائص ذاتية تميزها عن الملحمة والقصة ، فهي طويلة ولكن دون طول الملحمة، وغنية بالفعل اللغوي والتنوع والكثرة في الشخصيات ، التعاطي اللين مع الزمان والمكان ، فهي بهذه الصفات تقترب من الثقافة تأخذ من كل الأجناس و الفنون حتى الرسم و الموسيقى و لعل الرواية لا يصدق عليها إلا تعريف بورناف Borneuf و أونيليه في كتابهما عالم الرواية من أنها " النوع الذي لا يمكن الإمساك به (14) ، حيث يتعذر على أي دارس إيجاد تعريف جامع لها بسبب تحولاتها التي تلغي كل تعريف سابق.

3 - نشأة الرواية :

3- 1نشأة الرواية الغربية /تألق الرواية الإنجليزية:

عرفت الرواية في أوروبا، أشكالاً بدائية أدت فيما بعد إلى تطور هائل في بنيتها، تطور سريع مدهش في الموضوعات والرؤى و التقانات المختلفة، ولم تكن الرواية في القرن (19) أو فيما قبله على مثل الصورة التي نجدها عليها اليوم.

يذهب بعض النقاد إلى أن الرواية جنس أدبي حديث، نشأ و ترعرع في الغرب في العصر الرومانسي، و يرون أن هذا الجنس لم يكن بلا جذور، إنما يعود بجذوره إلى تاريخ موغل في القدم، إلى عصر الملحمة، و يرون أن الرواية بنت الملحمة(15)

لكن، إذا ما تم اعتبار أن الرواية بنت الملحمة ، فينبغي علينا أن نفرق إذا بين الجنسين، فالملحمة عند الإغريق شعرية و أبطالها من العظماء و النبلاء و أشباه الآلهة، أما الرواية، فهي بنت العصر الرومانسي، ثم إنها نثرية و أبطالها من البشر و لغتها بعيدة عن لغة الملحمة و التتميق الشعري و الأهم من هذا أن الملحمة منغلقة على قواعدها، صارمة في قوانينها في حين أن الرواية جنس مفتوح على الأجناس الأخرى ، وهي تتمتع بحرية مطلقة في اختيار هيئتها بعيدا عن الهيئة الثابتة مدى الزمن للملحمة.

وهناك عناصر فنية أخرى تختلف فيها الملحمة و الرواية مثل: النبوءة و الحدس بالمستقبل؛ فالنبوءة تخص الملحمة، بينما الحدس بالمستقبل من خصائص العمل الروائي؛ لأنه يتضمن القلق أي التفكير و إعادة التقييم، و بذلك فالاختلاف جذري بين الملحمة و الرواية في البناء و الهدف، حيث تكمن فنية العمل الروائي في تعددية المغزى الاجتماعي على مستويات مختلفة.(16)

و ارتباط الرواية بالواقع جعلها تفترق عن سلفها السردى " الرومانس " على الرغم من بعض نقاط الاتفاق بينهما، خاصة بعد صدور رواية روبنسون كروزو " لدانيال ديفو " هذه الرواية التي أسست التمايز بين الرواية و الرومانس النثري، الذي يعتبر قصص ذو جنوح خيالي و مبالغات شديدة، يفتقد مصداقيته الواقعية، و يعج بالخورق و المعجزات.. قوامه الأسطورة، أو الحب العذري و المغامرات والفروسية.(17)

لكن، إن كان بعض النقاد قد حاولوا إثبات القرابة و التشابه بين الرواية و الرومانس كالحكاية، فالجنسان يقومان أساسا على الحكاية، أو السرد، و منها اعتمادهما على اللغة المألوفة البسيطة في الرواية و اللهجة الشعبية في الرومانس، ولقاؤهما في أنهما يبتعدان عن الجزالة و اللغة الراقية التي كانت الملحمة تعتمد عليها و القرابة الثالثة في أن الرواية و معظم الرومانسيات كتبت نثرية، و إن كانت الرواية تستهدف بيان الواقع في حين أن الرومانس قصة، أو حكاية خيالية(18)

لذلك يجد " شرودر موريس " أن الرواية أقرب إلى رومانس العصر الوسيط من الملحمة، فيقول: " لكن الدليل العام للتاريخ الأدبي يطرح رغم ذلك أن الرواية مستمدة بتأكيد أوضح منه سابقها أي رومانس العصر الوسيط، و النهضة أكثر مما هي مستمدة من الملحمة " (19)

لكن، تجدر الإشارة إلى أن ارتباط الرواية بالملحمة وبالرومانس لم يمنع من أن يكون للرواية ملامحها الخاصة التي عرفت تبلورا و نضجا عبر امتداد الزمن ذلك أن الرواية، كأى جنس أدبي لم تولد منبئة الصلة بسياقها التاريخي الذي أسهم في تكوين خصائصها.

لقد ارتبط نشوء الرواية في النصف الأول من القرن الثامن عشر في بريطانيا قبل سواها من الدول بجلمة من الشروط الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي شكلت خاضنة ملائمة لولادتها ونموها لعل أبرزها(20):

– ارتفاع عدد الأشخاص الذين يجيدون القراءة والكتابة، وذلك بازدياد نسبة التعليم، ومن ثم، ازدياد نسبة الطلب على المقروء، وبخاصة في أوساط النساء، إذ أتيح لهن متسع من الوقت الذي يمكن صرفه في القراءة بسبب رفع الأعباء المنزلية عنهن في المجتمعات المدنية خاصة مع الانقلاب الرأسمالي في بريطانيا و حلوله محل الإقطاع.

- ظهور المطبعة وانتشار الطباعة، فالرواية نتاج المطبعة، ولم يكن متاحا من غير المطبعة، إنتاج ذلك العدد الضخم من النسخ، استجابة لتزايد عدد القراء الكبير.

- انتشار اقتصاد السوق، فقد أدى هذا الانتشار دورا رئيسا في نقل أسلوب الرعاية الأرستقراطية، الذي نشأ الكتاب في كنفه خلال النظام الإقطاعي، الذي كان يعاني الاكتساب مقدا على الكتاب الذي يشتغل عليه الكتاب .

- ظهور النزعة الفردية العلمانية و تشجيع البحث و المبادرة الفردية و المنافسة و المغامرة؛ أي ما يؤكد تمايزات الناس و طاقاتهم و طبائعهم ..فقد أنتجت النزعة الفردية الاحتراف بالشخصية و بالتشخيص المفصل لها، مقابل نمطية الشخصية في الأجناس السابقة للرواية، في حين انتجت النزعة الثانية مسارات منطقية لحبكات السرد و توجيهها.

و تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن هذه الشروط المذكورة، تمثل حاضنة و مناخا ملائما للجنس الروائي ، ماهي إلا نتويجا لإسهامين معرفيين بالغى الأهمية في دفع التاريخ الإنساني باتجاه العصر الحديث الذي احتضن نشوء الرواية يتمثلان في:

جهود الرياضي الفرنسي ديكارت (1596-1650) Descartes مع صدور كتابيه التأملات و بحث في المنهج و جهود البريطاني جون لوك (1632-1704) Locke مع صدور كتابه بحث في الفهم البشري.

و هما لحظتان أسستا للتوجهات الفكرية المركزية للعصر الحديث، كما أسستا للتوجه الفكري المركزي للفن الروائي الوليد الشرعي لهذا العصر. (21)

فالرواية كما يقول " واط "watt" هي الشكل الأدبي الذي يستطيع أن يعكس هذا التوجه الفردي و الابتكاري الجديد على نحو أكثر كمالا من بقية الأشكال الأخرى، وأما الأشكال الأدبية السابقة، فقد كانت تعكس الاتجاه العام لثقافتها(22)

إن تتبع تطور الرواية في أوروبا أمر طويل و متشعب، يصعب الإلمام به، خاصة و أن الرواية قد اشتهرت في فترات متقاربة في معظم دول أوروبا: كفرنسا، بريطانيا و أسبانيا و أيضا في روسي...و يقال إن أول رواية فنية في الغرب هي رواية دون كيشوت " لسرفانتس "فهي " الرواية الحديثة الكبرى الأولى.. لأن موضوعها الثابت كما تؤكد " مارت روبرت (Marth Robert) بقوة هو الرواية ذاتها التي قامت في تلك السنوات الأولى من القرن السابع عشر(23)